الاستلزام التخاطبي

ودوره في تحقيق مقصدية النص

" قراءة تداولية لنصوص من كتاب البخلاء للجاحظ"

د. فطومة لحمادي

أستاذ محاضر قسم "أ"

قسم اللغة والأدب العربي/جامعة تبسة/الجزائر

الملخّص:

ظاهرة الاستلزام التخاطبي تطرح إشكالات تستدعي من النظرية اللغوية معالجتها، ويتمثل هذا الإشكال في: كيف يستطيع المخاطَب إدراك المعنى المستلزم في الجملة التي يسمعها، علما أنها تفيد شيئا آخر، وكيف للمتكلم أن يقول شيئا يريد قوله ولكنه يقصد في الوقت نفسه شيئا آخر؟ وكيف يتم الانتقال من المعنى الصريح إلى المعنى المستلزم خطابيا؟ وكيف يمكن معرفة وضبط المعنى الذي تخرج إليه صيغة معينة من الصيغ الجملية كالاستفهام والأمر والنهي؟ وما هي آليات الانتقال من اللازم إلى الملزوم والعكس؟.

وغاية بحثنا متمثلة في استكشاف المعالم الرئيسة لظاهرة الاستلزام التخاطبي في نص تراثي يتمثل في كتاب البخلاء للجاحظ الذي يعد نصا مشحونا بمعانٍ مضمرة لا تفهم إلا من خلال استحضار سياق النص بمختلف عناصره فضلا عن استحضار السياق غير اللغوي قصد التمييز بين المعنى ومعنى المعنى.

عناصر المداخلة:

١- تحديد مفهوم الاستلزام التخاطبي، لغة واصطلاحا.

٢ الاستلزام التخاطبي في الفكراللساني الغربي الحديث والتراث البلاغي العربي.

٣- السياق ودوره في تحديد المعنى المستلزم في نصوص من كتاب البخلاء.

٤- معاني الطلب الأصلية والمعاني المتولدة عنها في المدونة.

٥-آليات الانتقال من المعنى الصريح إلى المعنى المستلزم مقاميا في المدونة.

٦- الخاتمة.

الكلمات المفتاحية:

المعنى الصريح، المعنى الضمني، التخاطب، الاستدلال، الاقتضاء.

Conversational Implicature and its Role in Achieving the Purpose of the Text: A Pragmatic Study of Texts from Al-Jahiz's*Kitab al-Bukhala* (Book of Misers)

Dr. Fatima Lahmadi
Professor at Department of Arabic Language and Literature,
University of Tébessa, Algeria

Abstract:
Conversational implicature raises questions that need to be addressed by linguistic theory. These questions include, how can the addressee understand the implicit meaning of the sentence he hears, which denotes something else? How does the speaker say something and at the same time mean something else? How do we move from the explicit meaning to the implicit meaning? How can we know and adjust the meaning if a particular formula such as *al-istifham* (interrogative), *al-amr* (imperative) and *al-nahy* (prohibition)? What are the mechanisms of transition from implication and implicature and vice versa?
The purpose of this research is to explore conversational implicature in Al-Jahiz's *Kitab al-Bukhala* (Book of Misers), a text loaded with implied meanings, which can only be understood by invoking the context of the text and the non-linguistic context in order to distinguish between implication and implicature.
The study covers the following sections:
١. Definition of conversational implicature
٢. Conversational implicature in modern Western linguistics and Arabic rhetorical heritage
٣. Context and its role in determining implicit meaning in texts from *Kitab al-Bukhala*
٤. The original meanings of *talab* (demands) and the meanings generated in the text
٥. Mechanisms of transition from explicit to implicit meaning
٦. Conclusion

Keywords:
Explicit meaning, implicit meaning, conversation, inference, implicature

تمهيد:

تعد نظرية الاستلزام التخاطبي (الحواري) أحد مجالات اللسانيات التداولية المهمة التي عني بها بول غرايس حينما ألقى محاضراته في جامعة هارفرد سنة ١٩٦٧م منطلقا من فكرة أن الناس في حواراتهم قد يقولون ما يقصدون، وقد يقصدون أكثر مما يقولون، وقد يقصدون عكس ما يقولون (...) فأراد أن يقيم معبرا بين ما يحمله القول من معنى صريح (المعنى الطبيعي) وما يحمله القول من معنى متضمن الذي قد يعدل إليه المتلفظ بالخطاب بحسب المقام، فيتولد عن هذا الأخير معنى حرفي ومعنى مستلزم[١].

ويعود مصطلح الاستلزام الحواري في العرف التداولي إلى كون معنى جمل اللغات الطبيعية إذا روعي ارتباطها بمقامات إنجازها لا ينحصر فيما تدل عليه طبيعتها الصورية من استفهام وأمر ونهي ونداء،إلى غير ذلك من الصيغ المعتمدة في تصنيف الجمل[٢] وإنما يتجاوز ذلك إلى معان وأغراض تواصلية مستلزمة عنها؛ ذلك أن التأويل الدلالي لجمل اللغات الطبيعية يصبح غير كاف إذا اعتمدنا فيه على معلومات صيغة الجملة وحدها، وهو ما حدا بـ "بول غرايس" إلى وضع مبدإ عام يخضع له كل المتحاورين سماه "مبدأ التعاون"، واقترح أن توصف ظاهرة الاستلزام التخاطبي عبره على أساس أن مصدر الاستلزام هو الخرق المتعمد والمقصود لأحد القواعد الأربع التي

[١] ينظر: محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، د.ط ، ٢٠٠٢، ص ٢٣.

[٢] ينظر: أحمد المتوكل، دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ١٩٨٦، ص٩٣.

يحكمها مبدأ التعاون.[1] وحري بالبيان أن هذه المبادئ والقواعد تلعب دورا معتبرا في تأويل الملفوظات، لذلك طالب منغينو بضرورة مراعاة تلك المعايير عند القيام بـ لعبة الشطرنج القولية، وذلك وفق الهدف المحدد من التبادل أو اتجاه المحادثة الذي ارتضاه لها المتكلم. ويعتمد المشاركون في حواراتهم على تلك الاتفاقات الضمنية السابقة لعملية التلفظ التي اكتسبت عبر المواضعة الاجتماعية ساعين إلى تحقيق مقاصدهم وغاياتهم وحماية التبادل من التوقف أو الانقطاع في الحالات التي يظهر فيها معرقل للحوار أو سوء تفاهم بين المشاركين، فإنه من الخطإ الزعم ببساطة أن في كل تفاعل تعاونا بين الأطراف المتعاملة، فالكذب والمخاتلة من الأمثلة التي يستدل بها بديهيا على النقيض[2].

ويتعلق الاستلزام التخاطبي بالملفوظ أو المنطوق أو بنظرية أفعال الكلام؛ لأن الوصول إلى المعنى لا يتم إلا من بعد معرفة المعنى الحرفي، وكذلك من اعتبار السياق وتطبيق قواعد التخاطب، كما يتعلق الاستلزام بمبدأ الافتراض المسبق (Pressupposition) من جهة أخرى.

التعريف بالمدونة:

لطالما كان الشعر ديوان العرب، ولطالما كانت القصيدة الجنس الأدبي الذي يعكس العبقرية العربية ويؤصل لها، غير أنه لم يكن المتن الثقافي الوحيد الذي يرمز للبراعة والتفوق الفني العربي، بل كانت هناك أشكال فنية تشاركه في الأهمية الموضوعية وفي الجودة الفنية، كالخطبة والمثل والحكمة والنادرة. ولعل الجنس الأخير قد أخذ مكانته لما فيه من رؤى صائبة

[1] ينظر: المرجع نفسه، ص٩٣.

[2] ينظر: دومينيك منغينو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة: محمد يحياتن، منشورات الاختلاف، ط١ ، ٢٠٠٥.

ووجهة نظر ثاقبة وموقف هزلي يروح عن النفس ويترك مكانا في القلب لا ينسى، ويعد الجاحظ من أبرز من أصل للطرفة ووضع لها القواعد وأطال عندها الوقوف لتصبح جنسا أدبيا له سطوته على الأذن العربية.[١]

والنادرة أو الطرافة جنس أدبي مخصوص ينزع منزع الطرافة والفكاهة في الظاهر، في حين تعد نقدا اجتماعيا في الباطن قصد إصلاح المجتمع، ومن خصائصها: الخفة بحيث يشترط في الفكاهي أن يكون صاحب ذكاء ليمكنه من البحث عن الحيلة وتدبر الخطط ونسج خيوطها. كما أن أهم ميزة تبنى عليها فن النادرة هي قيمتها التواصلية؛ كونها تفترض دائما وجود مخاطب تتعامل معه ليتفاعل مع موضوعها فينحاز إيجابا أو سلبا.

مدخل إلى المصطلح ومباشرة النص:

من ثوابت هذه المباشرة التداولية التي نطمح إلى إرسائها أنها ترفض التماهي المطلق مع النص؛ لأنه يكتفي برد المعنى إلى المؤلف وعصره ويجعله حكرا عليهما، ولكنها بقدر ما تمارس لعبة التسافي معه فإنها تقترب منه لتجلي إضماره وتكشف أسراره الدلالية.

النص:

ولم أر من يجعل الأسى حجة في المنع إلا هو، وإلا ما كان من أبي مازن إلى جبل العمي.

وكان جبلٌ خرج ليلا من موضع كان فيه، فخاف من الطائف، ولم يأمن المستقْفِي. فقال لو دققت الباب على أبي مازن، فبت عنده في أدنى بيتٍ أو في

[١] ينظر: عبد الواحد التهامي العلمي، تجنيس النادرة، بحث في المكونات والسمات، عمان، مجلة ثقافية شهرية ، العدد ١٢، عمان، الأردن، ص٦٧.

دهليزه، ولم ألزمه من مؤنتي شيئا، حتى إذا انصدع عمود الصبح خرجت في أوائل المدلجين.

فدق عليه الباب دق واثق ودق مُدِلٍ ودق من يخاف أن يدركه الطائف أو يقفوه المستقفي، وفي قلبه عز الكفاية والثقة بإسقاط المُؤْنَةِ. فلم يشك أبو مازن أبو مازن أنه دقُ صاحبِ هدية، فنزل سريعا. فلما فتح الباب وبصر بجبل، بصر بملك الموت. فلما رآه جبل واحما لا يحير كلمة، قال له: إني خفت معرة الطائف وعجلة المستقفي فملت إليك لأبيت عندك، فتساكر أبو مازن، وأراه أن وجومه إنما كان بسبب السكر. فخلع جوارحه وخبل لسانه، وقال: سكران والله، والله سكران. قال له جبل: كن كيف شئت. نحن في أيام الفصل لا شتاء ولا صيف، ولست أحتاج إلى سطح فأَغِمَ عيالك بالحر، ولست أحتاج إلى لحاف فأكلفك أن تؤثرني بالدثار، وأنا كما ترى ثمل من الشراب، شبعان من الطعام، ومن منزل فلان خرجت، وهو أخصب الناس رحلا، وإنما أريد أن تدعني أُغْفِي في دهليزك إغفاءة واحدة، ثم أقوم في أوائل المبكرين. قال أبو مازن وأرخى عينيه وفكيه ولسانه: سكران والله، أنا سكران، لا والله لا أعقل أين أنا، والله إن أفهم ما تقول.

ثم أغلق الباب في وجهه، ودخل لا يشك أن عذره قد وضح وأنه قد ألطف النظر حتى وقع على هذه الحيلة."[1]

هذا النص السردي يتحكم الحوار بناصيته ويسهم في صناعته، والبرنامج السردي له يقوم على ستة فواعل تنتظمها ثنائيات هي: الباث/ المتلقي، الذات/الموضوع، الضدية/المساعد، ويحيل على الأساليب التي تخلق أفق انتظار لدى المسرود له، وتجعل الحوار أمرا طبيعيا.

ويمكن تقسيم الملفوظات تبعا لنوعية العلاقة التي تقيمها ذات الفاعل بموضوع رغبته إلى بعدين: البعد التواصلي والبعد التداولي.

[1] الجاحظ، البخلاء، دار الكتاب العربي، مصر ، ١٩٩٧، ص١٣٦.

البعد التواصلي:

وأساسه ملفوظ (حالة الاتصال) ويمثله جبل، "وكان جبل خرج ليلا من موضع كان فيه"؛ لأنه على اتصال بموضوع الرغبة والقيمة " البحث عن المأوى" لذا قال:" لو دققت الباب على أبي مازن فبت عنده في أدنى بيت أو في دهليزه" وقد استحضر هنا استراتيجية من استراتيجيات الخطاب المتمثلة في الاستراتيجية التوجيهية.

واللافت للانتباه أن ملفوظ حالة الاتصال حدد الجزء الأول من النص (فنزل سريعا)، وأوهم المتلقي وجبلا– وهو الطرف الثاني للحوار-– بإمكان تحقق مشروع تواصلي قائم على مبدإ التعاون، تركزت الشروط الخاصة بسلامته على فرضية مبدئية مفادها أن طرفي الحوار فيها لا يحققان أهدافهما في التواصل إلا بمراعاة بعض المبادئ منها:

مبدأ التعاون:

فقد كان الحوار بين جبل وأبي مازن منسجما في الظاهر، أوهم جبلا بنجاح وتحقيق هدفه وغايته، وهو ضمان المأوى، وقد دعا الأول الثاني إلى تحقيقها ولا سيما أنه لن "يلزمه من مؤنته شيئا". فكان نفي هذا العائق قادحا ليدق جبل باب أبي مازن" دق واثق ودق مدل ودق من يخاف، يدركه الطائف".

وقد هيأ جبل مشروعا تواصليا ليخوض به معركة ممارسة التأثير والإقناع على المتلقي (أبو مازن) إعدادا وتنفيذا. فهل وفق في إنجاز برنامجه التواصلي؟ وهذا ما سنستشه من الداسة.

مبدأ الكيف:

يمثل هذا المبدأ قطب الرحى لأنه يمثل اختبار مطلب الإيواء، وينص هذا المبدأ على أن عملية التخاطب يجب أن تكون مفيدة، وأن يكون الخطاب دالا على المطلوب؛ أي لا يفيد أكثر مما ينبغي" وهذا ما لاحظناه من خلال تمكن جبل من اختزال الوصف وتعليل الخوف؛ لأن الزمان موحش، وهو الليل، والمكان متسع وغير آمن، واحتمال الاعتداء عليه وسلبه كبير، وهو ما يزيد من درجة الاعتقاد في وجاهتها والتصديق بها (مبدأ التصديق).

مبدأ الكم:

يقوم هذا المبدأ على قاعدتين أساسيتين هما: أن تكون مساهمتك على مقدار المعلومات المطلوبة منك، وفق أهداف التبادل الحواري الراهن، وألا تتوفر مساهمتك على أكثر مما هو مطلوب منك. إلا أنه قد يستهان بهذا المبدإ عند الاستخفاف به، عندما يأتي النص غير صريح؛ أي من خلال توظيف الكناية والتلويح والرمز والاستعارة، وخاصة ي وله:" **فقال لو دققت الباب على أبي مازن، فبت عنده في أدنى بيتٍ أو في دهليزه، ولم ألزمه من مؤنتي شيئا، حتى إذا انصدع عمود الصبح خرجت في أوائل المدلجين." د وظ الكناية والاستعارة لتحي مبتغاه وهو إناع أي مازن ضوة إيوائه.**

وقد برر جبل مطلب الإيواء بجملة من الحجج التسويغية، وهي حجج تجيز توقع نتيجة ما دون أن تؤكدها في قوله:" لو دققت الباب..." أي أنه أراد تحقيق غايته من خلال عدد من الحجج: أبيت في أدنى البيت أو في دهليزه، لم ألزمه مؤنتي، إذا انصدع عمود الصبح خرجت في أوائل المدلجين".

إذن فالجاحظ بدأ نادرته بالتحفيز الحجاجي المتمثل في استعداد جبل لإنجاح مشروعه التواصلي من خلال تفعيل القيم التي تعرف بها العرب المتمثلة في قيم الكرم وإغاثة الملهوف، وتجسيدها في الواقع من خلال ممارسة

التأثير بالحجج، مرورا بالبنية التعاقبية في قوله:"فدق الباب دق واثق ..... وفي قلبه عز الكفاية والثقة بإسقاط المؤنة" وصولا إلى الجزاء. غير أن أبا مازن اخترق مبادئ التعاون الكم والكيف (لأنه يقول ما يعتقده أنه كاذب) والمناسبة (لأن كلامه لا يناسب المقام) من خلال توجمه وسكوته كأنه بصر بملك الموت، وواصل هذا الخرق عندما تظاهر بالسكر "فتساكر .... فخلع جوارحه وخبل لسانه، وقال: سكران والله، والله سكران".

وإن مخطط الاستحواذ على أبي مازن ولو بالنوم في دهليزه حتى ينصدع عمود الصبح وممارسة التأثير فيه، اقتضيا من جبل أن يبرر مزايا الفعل الذي يحثه عليه وهو طلب الايواء، ويهون من كلفته المادية وضرره المعنوي. وتواصل خرق مبادئ التخاطب من خلال خرق مبدأ الملاءمة؛ لأن هناك انفصالا بين الافتراض المسبق وهو (فلم يشك أبو مازن أنه دق صاحب هدية، فنزل سريعا) (النزول السريع راجع إلى افتراض وجود شخص أمام الباب محضرا له هدية) إلا أنه صدم لما فتح الباب، فلا تلاؤم بين ما يعتقده وبين ما وجده فعلا.

ونلاحظ أن أبا مازن انتهج لنفسه منهجا مزدوجا: ادعاء السكر والتظاهر به، إعطاء الطابع الشرعي لرفض الإيواء، وهو ما يعرف عند السيميائيين بالذات المدركة التي تمارس فعل تفكيك الجسد وعوامله وترمي إلى إيهام المتلقي بأن المتلفظ غير واع بما يقول. والذات الأهوائية التي تبرز جموح الذات المتكلمة إلى تملك الخطاب وإضفاء الطابع الشرعي به.

وعلى الحدود الفاصلة بينهما تنتصب الإشارة الساخرة من سلوك أبي مازن. وما كان لهذه الذات المنفصمة أن يكشف القارئ أمرها لولا تطور

الحوار إلى حصار فرضه جبل عليها ليقطع السبل المؤدية إلى المناورة من خلال تكثيف الحجج المرجحة له:

إني خفت معرة الطائف، وعجلة المستقفي، فملت إليك .....، فهذه الحجج تهدف إلى إزالة التعارض بينهما لتحقيق التحول الاتصالي، وهنا تظهر اللعبة الحجاجية التي قام بها جبل وكيف قابلها أبو مازن من خلال افتعال حجة السكر وفقدان الوعي، إلا أن جبل انتبه لمقاصد أبي مازن المضمرة ونواياه الخفية في قوله (كن كيف شئت) والنفي (لست أحتاج) والتصريح بموضوع الطلب والإلحاح عليه .

فالخطة المنتهجة في هذه النادرة قائمة على منطق التأسيس (حجج جبل) والنقض (نقض حجج جبل واستبدالها بحجة أبي مازن)، مما يعني نقضا للمشترك القيمي المتمثل في معايير الكرم والإيثار وإغاثة الملهوف واستبداله بالاختيار الشخصي الموظف في نفي مبدأ التعاون وإبطال مطلب الإيواء الوقتي.

الخاتمة:

محصول القول أن الجاحظ تحدث عن البخل والبخلاء، وسلك في دراسته طرائق مختلفة، وذلك كان علامة تحول في الأدب؛ حيث كانت كتابته صدى لما استجد في عصره على مستوى المجتمع أو السياسة أو الأدب.